القدس العربي
AL-QUDS AL-ARABI

عنترةُ وعبلة وأبوزيد الهلالي: على صهوة لوحات الفنان التونسي عادل مقديش

بسمة شيخو

Nov 22, 2014

لأساطير والقصص الشعبية، حكايات الأبطال بموروثها الثقافيّ التّاريخيّ، لم تمت ولا يمكن لها ذلك لأننا في أي لحظةٍ نستدعيها من رقادها، فها وعنترة العبسي يمتطي صهوة الأبجر بصحبة عبلة، وهذه ولّادة والقُبل تحوم حول صحن خدها، وبلقيس وحيدة دون سليمان وهدهده المسافر عنبر، لجازية الهلاليَّة ملّت قيادة الحملات الحربيّة، وذاك أبوزيد الهلاليّ، وتلك الأميرة ذات الهمة تركت حكمها، وعليسة لم تنحر الثور قرباناً عندما رست على ساحل.

ك قصص أندلسيّة وأحلام إفريقيّة، تعود إلينا في محاولة لصياغةٍ روائيةٍ جديدة لأحداثها والنظر في تفاصيلها كحدثٍ ذي أبعادٍ فنيّة. فبعد بدايةٍ جريديّة جنح الفنّان التونسي عادل مقديش إلى الرسم السرياليّ بحضورٍ مكثّفٍ لتلك الشخصيات الأسطوريّة، مشكّلاً بذلك منعطفاً في تجربته الفنيّة لمتدة على ما يفوق الثلاثين عاماً. رسمَ عادل مقديش فضاءات الذاكرة الجماعيّة والشخصيّة كذلك، وجمع شخوصه في حلم يعبر أزماناً مضت وحروباً نتهت، وكأن الحكواتي الذي يسكن المقاهي الشعبيّة عادةً قد نزل عن كرسيه وأمسك ريشته وراح يرسم لوحات بصيغةٍ سرديّة تحلّق في مدارات ذاكرته بصريّة المتخيلة المتواترة. يقول مقديش: «لـي ذكرى أليمة مع الروم والأتراك والإسبان وقبائل بني هلال الزاحفة ولي أيضا معاناة مع الإفرنج».

يضيف: «أرسم خصوبة عليسة على جلود البقر المقدّس، أنحت وجه جوغرتا في أسواق الفرس البربرية، حفرت على جدران المعابد الإفريقية رسم سفن الساحلية وأشرعتها المنسوجة بشعر النساء، كل رسم لي ومضة برق في السماء الأفريقية، وأجراس الخيول الآتية تعزف خيوط الألوان لولبية على ف أندلسية في ليلة زفافها».

لوروث التاريخي الثقافي هذه المرة ليس كالحاً ولا مملاً، بل هو مليء بثنائياتٍ تغنيه وتمنحه الحياة، حيث تلتقي الأصالة مع الحداثة، الحقيقة مع خيال، الواقعيّة مع السرياليّة في جمع لا يتقنه إلا فنانٌ ذو خبرة بتفاصيل الفن وحيثياته وذو معرفة بمفهوم الموروث والحفاظ على الهوية.

بدأ الأشكال في لوحات عادل مقديش برموز وصور نابعة من الذاكرة الذهنيّة لشخص الفنان أو عن ذاكرة شعبية جماعية متخيّلة، لتنتهي بتصاوير شخيصية نابعة من عمق التراث المحليّ مرةً ومن التّراث العربي الإسلامي مرةً أخرى. عالم تحكمه التصورات الغريبة غير المألوفة، تصورات سريالية في سم أبطال الحكايات فلا يشبههم أحد، عيون واسعة تحكي القصة بكلّ تفاصيلها وشفاهٌ صغيرةٌ صامتة عن الكلام، أجسادٌ ممشوقة وأيادٍ متطاولة تمسك اهتمام المتلقي.

قول مقديش: «أنطلق في رسوماتي من مثيولوجيات ومن أساطير شعبية ومن خرافات الطفولة ومن اللاوعي الجماعي، ومن فزع التمزق الذاتي بين حلم والواقع وبين التقسيم الزمني في محاولة لتوحيدها في واقع واحد حيث تلتحم كل مقومات ومدارك الذات في تعاملها الديناميكي مع المحيط لتحرك».

دخّل مباشر من المخزون التاريخي والحضاري شمل الحضارة الإسلامية، ويتجلى بوضوح من خلال الزخرفة التي تنبت في حقول لوحاته كأعشابٍ خضراء تمنح اللوحة ربيعاً أخضر لا يخيفه الخريف، انحناءات نابضة بالحياة ومدلولات فلسفية عمرها آلاف السنين، تتجدد في قلب كلّ لوحة. بالإضافة حروفية حيث تتفرغ الكتابة من إمكاناتها الدلالية اللغوية لتغدو بذلك كياناً متجاوزا للغة، أي جسداً حرفياً مستقلاً بإمكاناته الحرة خارج كل منطق عبيري مباشر، فيلجأ الفنان إلى محو الحدود بين تشكيله للحرف والأيقونة الزخرفيّة وبين تشكيله للجسد بطابع تأليفي وتفاعلي يحملهما على التغريد في جال حركي واحد.

ن هذا الحضور «التشخيصي للحرف ليس أبداً حضورا للغة، بل تغييب لها بمعناها الحقيقي، واحتفاءً لا بجوهرها وإنما بجانبها المادي المحسوس صرياً فالشخوص في اللوحات هم الرواة الوحيدين لما يجري داخل اللوحة.»

هنالك الحضارة الفارسيّة وحضارة ما بين النهرين بمخزونهما الفني المتوافق مع الطلاسم والأيقونات السرياليّة أو ما فوق الواقعية أحياناً، حيث نجد أن شبكة الرمزيّة التي ينسجها الفنان شائكة ومعقدة تدور التمائم والطلاسم فيها حول قضايا إنسانية وجودية، فتكون هذه الصور المجازيّة التاريخية في حاته محوراً يصل بين روح الحاضر وبين المادة الخام لهذه الأساطير.

حكايات ملوّنة بعناية فائقة، سطوحٌ واسعة نقيّة كبحيراتٍ لونيّة متناوبة الحضور لا يحرك ركودها الهادئ سوى خطوط حادة لرسوم واضحة، فلا مكان ضربة ريشةٍ زائدة، ولا لتدرجٍ لونيّ يخفف من تأثير اللون المباشر، الألوان هادئة متآلفة مع بعضها ومع الأشكال بشكل مدروس لخلق سماء من المتعة وق عالمٍ من الميثولوجيا والأساطير يثري العمل الفني في مجمله ويجعله منفتحا على مجال تأويلي شاسع فتبرز اللوحات كأحلام يقظة لتتحول إلى فاهيم لا يحجبها حاجزٌ عن المتلقي الذي قد يتعامل معها كنفيسة من النفائس.

صرّ الفنّان عادل مقديش على استقلاليته وتميّزه دون الحرج من المرجعية، فهو يقدم مقترحات تشكيليّة وجمالية ذاتيّة تنهل من الحلم ومن الأسطورة تجز مشروعاً متحرّكاً لفنّ تشخيصي غير استشراقي، خالقاً عالماً مختلفاً أرجله في التاريخ والتراث الشعبي، ورأسه يرتفع عاليّاً في العالميّة، متشبثاً عدم تقييد المحلّي بوصفه قيّمة جمالية منفتحة، فالذّاتي مطلب ضمني أساسي للممارسة التشكيلية، لذا كانت أعماله موضع استحسان الغربي قبل لحلّي.

سمة شيخو

Like 114

© صحيفة القدس العربي